

حى بن يقظان

لمحة عن النظريات والمذاهب الفلسفية التى توحىها مطالعة الكتاب

لكتاب حى بن يقظان مقام جليل فى تاريخ الفلسفة العربية ، سجل لصاحبه شهرة واسعة فى القرون الماضية لاسيما فى بدء نهضة الافرنج . ولانزال نذكر الى الآن مؤلفه ابن الطفيل كلما طالعنا كتاب « روبنسن كروزو » لديفو الانجائزى ، فنحن وان كنا بغير حاجة فى هذا العصر الى ما فى هذه القصة من نظريات عقلية أو مذاهب عملية نرتب عليها أعمالنا فى الحياة ، لانزال نحفظ لمؤلفها فضل الاسيكية فى مثل هذا الفن القصصى الفلسفى ، ونريد أن نذكرها كلما اتينا على ذكر ديفو وبطل قصته روبنسن كروزو . ولست أريد من ذلك أن قصته روبنسن هى ككتاب حى بن يقظان قلباً وقالباً ولكن أريد أن اشير الى شبه فى الفكرة ومجاسة فى الفن القصصى .

ولنتنقل بعد هذه الكلمة الى ما نحن بصدد من استخراج النظريات والمذاهب الفلسفية من قصة حى بن يقظان لتبين قيمة هذا التراث الفلسفى الخيالى فى أدبنا العربى

لا نريد أن نقول - قبل أن نأتى على تلخيص القصة - أن ابن الطفيل قد ضمنها زبدة التعاليم الفلسفية العربية ، والمذاهب العملية وصاغها فى قالب خيالى جذاب تستشف من ورائه شخصية للفيلسوف الوادعة ، وفكرته الخاصة التى تنهك سراعاً للخير ، فكان بذلك سابقاً لديفو واضرا به من الافرنج القصصيين :

فأول ما يستلفت نظرك أيها القارئ الكريم من هذا الكتاب هو عنوانه الرمزى الغريب : حى بن يقظان . فمن هو هذا « حى » ؟ وابن من ؟ ابن يقظان ... هذا الاسم رمزى فى مدلوله وهو فى عرفهم ابن من لا ينام أى الله عز وجل

وتفتح الكتاب فاذا هناك مقدمة وجيزة فى نقد الفلاسفة الاسلاميين ، ونظرة سريعة فى الحكمة الشرقية سيشرحها لك مفصلاً عند الحديث على بطله حى

كل الكتاب نظريات وثبت للمذاهب الفلسفية ، فأول ما نتاجا به أيها القارئ هى هذه النظرية ، نظرية التوليد من غير أم وأب ، فيدهشك هذا القول من فيلسوف إسلامى ويفضبك خصوصاً اذا كنت من اصحاب الايمان الحار ، ويأخذ بك ابن الطفيل فى منعرج هذا المذهب الوعر الذى يصعب علينا حله واتباعه ، ويستطرد فى كيفية تخير الطينة تحت اشعة الشمس وعلوق الروح بها ، فليذلك الاستطراد ولا يعجبك الاعتقاد ، والحق يقال ان هذا المذهب

لم يكن يياض البشرة فى مصر القديمة يعتبر جمالا ، ذلك أن شمس مصر اللافتة تخرج ذلك اللون الخمرى البديع ، الذى يجعل من بشرة المصريين خلاصة وظرفاً لاتصل اليه البشرات الاوربية البيضاء الناصعة ، اذن فقد كانت النسوة المبيضات اللون تسعى الى الوصول للبشرى الأعلى فى جمال البشرة ، فيعمدن الى الحناء وهى من النبات المصرى الاصيل فيصبغن بها أجسامهن ووجوههن لتصبح لهن تلك البشرة النحاسية الخمرية الظرفية .

وهذا ما يطابق تمام المطابقة الغرض الذى استعملت فيه « البودرة » الاوربية . اليس منشأ البودرة هو الحصول على يياض يقترب من يياض المثل الأعلى للجمال الاوربى ؟

والأحمر ؟ فيم تحتاجه المرأة الخمرية اللون ؟ المحمرة البشرة بطبيعتها ؟ ثم أى جمال تشاهده الآن فى تلك الشفاه الحمراء فى لون (الطاطم) بين خدود خمرية وشعر أسود فى لون الفحم ؟ إنها تبعث فى العين تنافراً قل أن يرضى أحداً .

لهذا لم يعرفه المصريون فى زينتهم مع معرفتهم لونه ومسحوقه فى تلوين الجدران البيضاء ، وفى التصوبر على الفخار ، وفى الكتابة على البردى

لكنهم عرفوا (الكحل) ووضعوه فى عيونهم ، وجعلوا منه الوانا متباينة بين الاسود الفخمى والأخضر القاتم ، والازرق الداكن ، والعسلى الغميق ، وكلها لتطابق الوان الشعر والعيون والاهدا ب ، وتمشى مع تناسق ألوان هذه الاجزاء فى الجسم .

واليك صورة جميلة للمرأة المصرية القديمة :

« امرأة رشيقة فى ثوب رقيق ناعم من الكتان ذى ثنيات طويلة يستر كل جسمها ويدل على مواضع الجمال الطبيعى فيه ، ذات وجه خمرى يبدو فوق هذا الثوب الانيق بجماله الطبيعى ، خفيفة حمرة الشفاه ، بياض الاسنان ، سوداء العينين مكحولتهما بكحل يطابق لونه لون حبة عينا ، مرسله الشعر الاسود فى صفائر على كتفها ، يتشعريجه وطيه وعطوره ، وتضع فى قدمها صندلاً رقيقاً يزيدها رشاقة وأناقة ...

هذه هى مثل الاناقة المصرية ، والتواليث المصرى منذ خمسة الاف عام ... ؟

الطبيعي الذي يبني مبدا الخلق والتكوين على الصدف والتصادف والذي يعتنقه الكثيرون في عصرنا - وما اكثر المذاهب والآراء في هذا العصر - غير مبني على أساس متين ولا براهين جلية بحيث تقلع من صدرك الايمان بصحته . فالمذاهب الفلسفية ، الاقوال فيها كثيرة ومختلفة ، وليس هناك دستور واحد في البحث تمشي عليه ، وحقيقة واحدة تنفق عليها . ففي المسألة الواحدة تجد قولين أو ثلاثة أو أربعة ، والانسان عندما يكون متردداً في مسألة ما ، تكثر تعاليله وحذسياته . فابن الطفيل مثلاً لا يجزم بصحة هذا المبدأ الطبيعي كما هي عادته ، فيأتيك بقول آخر أعم وأشهر ، ولكنه ليس بنظرية بل تحليل ثانوي لكيفية وجود حي بن يقظان في جزيرة من جزائر الهند تحت خط الاستواء ، فقد اختلفوا في وجود هذا الشخص في هذه الجزيرة المنقطعة عن السكان المقفرة من بني الانسان . فيقولون ان حياً كان ابناً غير شرعي وان أمه أخت ملك قد وضعت في صندوق وقذفت به في اليم ، فقاده المجرى المائي الى هذه الجزيرة «الاستوائية» وهذا القول اقرب واخف وطأة على القاريء من الأول ، اذ يعرف ان موسى أيضاً قد قذف به في اليم* ، ولديه على ذلك نص وهو القرآن قد فرغنا من استخراج هذه النظرية وسللناها من طيات هذا السفر الجليل ، فاتبعني أيها القاريء الكريم لنستطلع بعد ذلك خبر ما آلت اليه حال هذا الطفل البائس الذي سيكون له فيما بعد شأن يذكر .

رمت به الأمواج الى شاطئ جزيرة تحت خط الاستواء ، وكم يكون جزعك على هذا الطفل عند ما تعلم ان هذه الجزيرة خالية من السكان . ترى من يغذى هذا الطفل ، ومن يشفق عليه ويشمله بحنانه ، اذ لا انسان يعطف عليه ويحسن رعايته ويوفر له أسباب الحياة ؛ ولكن كم يكون فرحك عظيماً عند ما ترى أن ظبية من بني الحيوان قد رثمت به ، ووجدت فيه تسلية وعوضاً عن ابنها المفقود ، فغدنت تغذيه بلبانها وتشمله بحنانها ، حتى درج وأصبح قادراً على المشي والعدو مع أمه في البرية ، وما ان صار على رأس أسبوع من عمره أي سبع سنين ، حتى صار يرافق أمه في غزواتها ، يناشدها بأنعامها وتناشده ، فاذا سمع تغريدة عندليب حاول تقليده ، واذا سمع فحيح أفعى أو زئير أسد لم يحاول الابتعاد ولم يوجس خيفة ، وتكررت هذه الأصوات على سمعه فوعاها ، وغدا يرددها فيجيدها . وهنا أيها القاريء الكريم تعرض لنا نظرية غامضة ولكنها جميلة ومشوقة ، فلنتد في درسها وتحليلها قليلاً . النظرية هي نظرية النطق والكلام . أخلق الانسان متكلاً لغة أجاد فهمها منذ البدء أم علمه الله اياها ؟ واذا كان ذلك فلماذا لم تتفق البشر عليها ؟ وما تحليل كثرة اللغات واللهجات التي نسمعها وما هو علتها هذا الاختلاف ؟

كل ذلك - أظن - جدير باستعراض خاطرك وانتباهك ، وهو يوقظ في نفسك حب الاطلاع والتعليل ، وتريد أن تفكر وان تجد تحليلاً فلا تجد ، فيؤول بك التفكير الى حدى بحدس . وتحمين بتخمين لا طائل تحتها ولا جدوى . فابن الطفيل لا يبدى لنا الا قولاً واحداً في كيفية نشوء اللغة عند الانسان وهو ليس من أرباب الوحي والالهام الذين يقولون ان الله أوحى الى الانسان أن يتكلم فتكلم ، وهو ليس من الذين يقولون ان الله خلق الكلام وخلق في الانسان المقدرة والقوة على نطقه . كلا ليس ابن الطفيل في شيء من هذا ، وهو على مذهب البعض من المحدثين في القرن التاسع عشر ؛ فهو لا يعلمون نشوء اللغة أى النطق بأن الانسان في طوره الهمجي طور الغريزة الحيوانية يتلقى أصوات الحيوان ويقلدها في جرسها ونغمتها ، ويضعون لذلك مقاطع طبيعية دازت على ألسنة البشر أجمع في طور وحشيتهم ، توجد في جميع اللغات الحية وهي إدا ، آر ، آد ... وما أشبه ذلك على أن الاختلاف الذي نراه ناتج عن سنن التباعد والتقارب في أخلاق البشر وأماهم الطبيعية .

فانت ترى ان ابن الطفيل من هذا الرأي وان « حياً » قد الحيوانات في أصواتها ولم يجد التكلم في بدء أمره بدليل ان ابن الطفيل يتبع لبطله حتى مصادقة اسأل فيعلمه الكلام وأمور الدين . فحياة حتى هي اذن نفس حياة البشر في طور وحشيتهم وهمجيتهم . ولكن ابن الطفيل لا يقف عند هذا الحد ، ولا يريد أن يسرح بطله مع الحيوانات بل يرقى به الى مستوى فكري سام تقصر عنه المدارك ، ويريه أشياء لم تقع على سمع أحد « ولا خطرت على قلب بشر » . فانه بعد أن يعلمه الأصوات يريد أن يعلمه الطب كما تعلمه كلية الطب في بيروت لتلاميذها ، وان يطلعه على علم التشريح وما فيه من سر دفين . وماتت الظبية أمه ، وقعد للبقاء عليها ولزم الحزن أياماً ينادى فلا تعى ولا نجيب ، ويندبها فلا تأبه لتحرقه وبكائه ، وأراد أن يعرف موطن الآفة في جسد أمه محاولاً انقاذها بما هي فيه ، وبطريق النظر والاستدلال يفتح جوفها ويتوصل الى القلب المركز الرئيسى لجميع الأعضاء ، ومنه الى الدماغ فلم يجد بها آفة ، حتى اذا ما انتهى من البحث والاستقصاء اتى على علم التشريح بكامله ، ونحصل له من ذلك : ان ما يحرك الجسد انما هو بخار يتولد في التجويفات القلبية فيصعد منها الى الدماغ ، وهذا بدوره يحرك الأعضاء . وهذا ما قال به ديكارت معبراً عن هذا البخار بالآرواح الحيوانية Esprits animaux .

قد يدعشك مثل هذا البحث المنظم الذي يقوده حي بن يقظان ، وهذا الاستدلال الثاقب ، ويضؤل في نفسك شخص ابن الطفيل

القصصى ليتجسم لك فى شخص حى الطيب الحاذق والمشرح اللبق؛ والحق يقال أن ابن الطفيل بعد أن يرتفع بخياله يكبو به جواد هذا الخيال ليحطه الى الارض. لذلك كان الفيلسوف الطيب، ولم يكن الفنان القصصى بالمعنى الواسع لهذه الكلمة. فن الغريب أن يكون حى قد استكشف مثل هذه النظريات والتطبيقات العملية فى مثل هذه المدة الوجيزة، فانا نرى فكراً سامياً يتوصل بمحض فكره الى الحقيقة، لا فكراً وحشياً غريزياً يلقى بمثل حى؛ ولكن هى قصة أقرب الى: «الأتويا» منها الى الحقيقة الملموسة. ولا نجزم بأنها نظرية، ولا نريد أن نناقشها بل نترك ابن الطفيل وتلميذه يعلمه ما يشاء وكيف يشاء، على أننا نستشف من خلال البحث عن كيفية تعلم حى بن يقظان على نظرية النشوء والارتقاء فى العناصر الطبيعية وفى مدارك البشر، وكيف أنها تنتقل من الملموس الى المحسوس الى المعقول، وكيف أن الحواس اتصل بالاشياء الخارجية فتؤثر هذه فيها وتنفعل عنها فتحوّلها (أى الحواس) الى دائرة التفكير والتفهم فتصوغ ما أحست بقالب السبب والقانون.

ويفقد حى أمه ويخرج الى معترك الحياة وحيداً طريداً، فكل شئ فى قطر وجوده يستلفت نظره ويستعري انتباهه، فهو كآلة واعية — اذا كانت آلة تعى — وضعت فى مكان ما تلتقط كل ما اوحى لها من حيث القى أو أوحى. فتسجل حركات الاشياء وتنفعل عنها، وهل الانسان — كما عرفه بعض علماء النفس — الا مجموعة من المؤثرات الداخلية والخارجية تجمعت فشكّلت هذه النفس التى تعى وهذه النفس التى تفهم وتتذكر؟

ويستكشف «حى» النظريات ويستدل بمحض فكره السامى وثاقب ذهنه على وجود «واجب الوجود» وهذه النظرية هى محور الفصّة بكاملها وهى التى شغلت جميع فلاسفة الاسلام. ويستكشف «حى» مبدأين: المادة والصورة، بواسطتهما يتوصل الى اكتشاف وجود الله، فاعتبر: «أن كل حادث لا بد له من محدث» فلمس هذا المحدث فى المحسوسات فلم يعثر عليه، وانتقلت فكرته الى الأجرام السماوية ورسخ فى ذهنه أنها تعقل ذواتها، وأنها صادرة عن فلك واحد وهو الاعلى. وهنا يجب علينا أن نقف قليلاً ونشير الى هذه النظرية التى كانت شائعة عند اليونان والتى اقتبسها العرب ولا سيما ابن سينا، ووسعوا دائرتها. فانهم اعتقدوا أن الاجرام السماوية تعقل وتحيا وفيها العقل الفعال الصادر عن الله عز وجل، وأن الله يعلم ما فى السكون بواسطتها وهى أشرف الموجودات. وقديما دعواها أنصاف آلهة. وتتجاوز عن تفنيد هذه النظرية الخرافية التى تعد الى جنب المباحث الفلكية العصرية - خرافة من خرافات القدماء.

ولما عرف «حى» حقيقة نفسه وأنها غير أجسامية وبها عرف «الموجود الواجب الوجود» حدث له شوق حثيث الى معرفة الخالق عساه يراه، فشرع فى تفحص الأعمال التى تقربه إلى الله عز وجل، فوجد أن الطريقة المثلى هى: فى ترك المادة وتنقيف الروح التى هى مبدأ روحانى صادر عن الله تعالى، ولما كان يعلم أن الاجرام السماوية تعرف الله، التمس لنفسه الصلاح بالناسى بها ليتوصل اليه، وهنا يعتق حى مذهب الاتصال وترويض النفس والعزوف عن الاشياء المادية كما كان يفعل متصوفة المشرق، الا أن هناك فرقاً كبيراً بين المذهبين يجب أن تنتبه اليه أيها القارىء. ألا وهو: أن المتصوفين يصلون الى الله عز وجل عن طريق العاطفة الدينية والعلم الالهى؛ أما حى المتصوف النظرى فيتصل بالله عز وجل عن طريق البحث والنظر، ويجهل تماماً طرق الصوفية الدينية، وعلى هذا المذهب مذهب التصوف النظرى سار فلاسفة الاندلس فولدوا بذلك نزعة جديدة ضد التصوف الدينى الشرقى. على أن ابن الطفيل إن اختلف مذهباً لم يختلف عنهم نتيجة بل أدى به هذا المذهب الى القول بالفناء والحلول، ولكنه حلول معتدل مغشى بستر القصة الخيالى. فانه عند ما يفنى حى فى الذات الالهية ويوشك أن يعتقد أن ذاته لا تغاير ذات الله، وأنه هو الله. يبادر ابن الطفيل ليلدد هذا الاعتقاد، ويقول على لسان بطله «حى»: ان هذه الهواجس التى عرضت له وأقنعت أنه ذات الحق، لم تكن إلا من بقايا المادة والاشياء الدنيوية. وهذه النظرية هى ما ندعوها بنظرية الشمول النظرى Sdéalisme panthéistique. ولا نريد أن نبحث فى مثل هذه النظريات الالهية بل نترك الخوض فيها إلى أولياء الله العارفين، تعالى الله عما يصفون. فان الطفيل اذا يفضل الوصول الى الله عن طريق البحث العلمى النظرى، ويمثل لنا هذه النظرية ويدافع عنها فى شخص «حى» وانه استطاع بنظره وفكره السامى اكتشاف الحق تعالى، بدليل أن ابن الطفيل يدخل فى القصة شخصاً آخر «أسال» وهو العقل المتهدى الى الله عن طريق لدين والاجتهاد، فيعجزه عن الوصول الى المقام الذى توصل اليه حى «وطلب حى مقامه الجليل فبلغه واقتدى به أسال حتى اقترب منه أو كاد» فلا ريب بعد ذلك فى أن فيلسوف الاندلس يفضل الطريق النظرية على الطريق الدينية؛ وأنه ما استطاع ان ينجو من ورطة هذا القول الذى كثيراً ما جر على آخرين التعذيب والتكيل، الا بواسطة هذا الوشاح القصصى الذى يلقى على النظريات والمذاهب الفلسفية فى رسالته النفيسة.

على أن ابن الطفيل لم يخل من اللوم، وأرباب الدين يؤخذونه على أربعة ١ - باهماله أمر النعمة وسقوط الطبيعة البشرية ٢ - بتفضيله